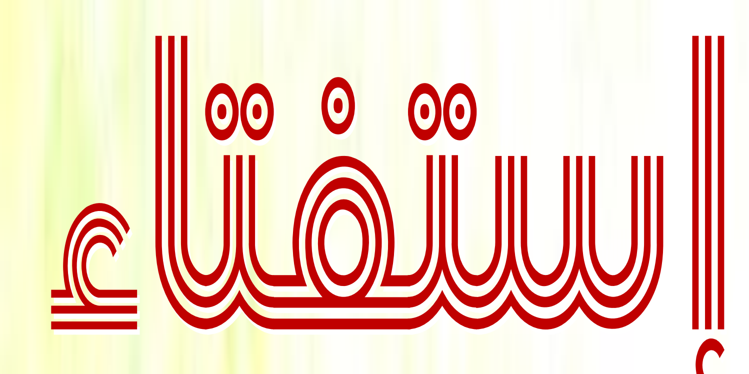
حوارات عربية حول النهضة والتقدم



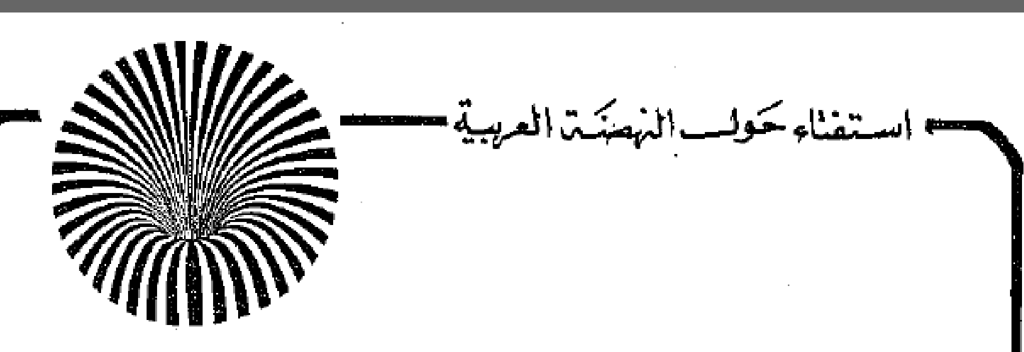
حول النهضة العربية

أراء ومواقف حول الأدب والفن والفلسفة واللغة

قسطنطين زريق نجيب محفوظ سالم يفوت معن زيادة



تونس 1988



- د. قسطنطين زريق

- نجيب محفوظ

- د. سالم يفوت

- د. معن زيادة

حول النهضة العربية :

١) هل استكملت النهضة العربية شروط وجودها ، وقد مضى على بدايتها اكثر من قرن ونصف ؟ وما الذي يعوزها ايضا في رايـك ؟

٢) بدأت النهضة مع الاحتكاك بالغرب ، فهي مزدوجة تؤكد من جهة ضرورة حفاظ العربي على اصالته ، ومن جهة اخرى الاخذ باسباب الحضارة الحديثة ، فما حدود الاقتباس وما هي مجالاته : النظم السياسية والاقتصادية والتربوية ؟

الادب والفن والفلسفة ؟

٣) التضامن العربي عامل هام من عوامل النهضة ، فما دوره على على الضبط، وما الاغراض التي حققها حتى الآن، او يمكن ان يحققها ؟

حول مستقبل اللغـة العربيـة :

١) هل تحقق الغرض من تحديث اللغـة العربية الذي بدأ منـذ حوالي قرن ونصف ، فصارت بمقياس اللغـات العالمية وصار بوسعها اداء العلوم والاداب والفلسفة العالمية ؟

٢) هل تستطيع اللغة العربية في وضعها الراهن استيعاب المحكي المتصل بالواقع المباشر وبالتالي تجاوز الازدواجية في التعبير؟

٣) ما الدور الذي تلعبه اللغة في توحيد العرب .

د . قسطنطين زريــق

حــول النهضة العربيــة :

١) لا بد ، في مطلع الاجابة عن هذا الســؤال ، تحديد مفهومنا ل « النهضة العربية » . فلقد درجنا ، عند نظرنا الى نشوء هذه النهضة او متابعتنا لمسارها ، على التركيز في الاكثر على الجوانب الثقافية من حيث الاتصال بالغرب وما ادى اليه هذا الاتصال من اقتباس افكار جديدة وقيم تليــدة ومن احتكاك وتفاعل بينهــا وبين الافكار والقيم الموروثة . وغالبا ما عني مؤرخو هذه النهضة بالحركات الادبية والفكرية التي تمخضت عنها ، مجارين في ذلك الباحثين في « النهضة » الاوروبية الذين اعتمدوا اصلا محتواها الفكري وما اتسم به مــن تجديد وابــداع .

ومع ان التجديد الفكري قد ياتي سابقا لتجديد حياة المجتمع بكاملها ويكون شرطا لازما لهذا التجديد ، فان القوى السائدة في هذا العصر قد طغت على حياة الشعوب بمختلف عناصرها وربطت بين هذه العناصر ربطا وثيقا ، فلم يعد بالامكان فصل احدها عن غيره ، بل غدا ضروريا تناولها جميعا في حركتها الدينامية وفي تفاعلها الذي يزداد يوما عن يوم شدة واحتداد .

ومن هنا ، اذ نتكلم هنا عن النهضة العربية الحديثة ننظر اليها في شمولها للحياة العربية عامة بوجوهها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وغيرها . فلئن جاز في الماضي ان نقصر مفاهيمنا لها على احد هذه الوجوه او بعضها ، لم يعد هذا جائزا في هذه الايام نظرا لاحتدام قوى العصر وامتداد ترابطها وتفاعلها .

ومن هنا ، اذ نتكلم هنا عن النهضة العربية الحديثة ننظر اليها في مضى عليها اكثر من قرن ونصف ، قد استكلمت شروط وجودها . بل ، على العكس ، نقول ان هذه النهضة هي الان في حال تعثر وتردٍ ، بل نتساءل عما اذا كان صحيحا ان نظل ندعوها « نهضة » .. ولا بد هنا من تبيان الاساس الذي نبني حكمنا عليه . اننا لا نبني هذا الحكم على المقابلة بين ما نحن عليه الآن وما كنا عليه قبل هذه النهضة . فلا ينكر ان تقدما واسع النطاق قد حدث في معظم جوانب حياتنا او في خروجنا من الحكم الخارجي الى الاستقلال ؛ في ما اقبلنا عليه من ضروب الانتاج في حقول الزراعة والمواصلات والخدمات وسواها؛ في تجهزنا الدفاعي؛ في ما أنجزنا من اوجه التحرر الاقتصادي والاجتماعي لفلاحينا وعمالنا ونسائنا وغيرهم من فئات مجتمعنا ؛ في انتشار التعليم ، على مختلف مستوياته ؛ بين جماهيرنا وتزايد اعداد المهنيين والمختصين من ابنائنا ؛ في تنبه وعينا الثقافي وتكاثر اعمالنا الادبية والفنية ونشاطات مؤسساتنا النشرية وتعدد منشآتنا المكتبية والمتحفية والتطبيقية العلمية ، وفي غير هذه من مجالات حياتنا القومية . لا شك ان في هذا كله نواحي ايجابية يجب الاقرار بها وتسجيلها . هذا

عندما نعتمد اساسا للحكم المقابلة بين ما نحن عليه الان وما كنا عليه قبل بدء النهضة .

ولكن يجب ، من جهة اخرى ، التساؤل عما اذا كان هذا الاساس هو الاساس السليم ، او على الاقل ، عما اذا كان يصح الاكتفاء به . ان الاساس الاجدى اعتماده في نظرنا هو المقابلة بين ما نحن عليه وبين ما يجب ان نكون اذا اردنا مجاراة الحياة الجائشة اليوم واللحاق بالركب المتقدم وحماية حاضرنا ومستقبلنا من الاخطار وتجهيز انفسنا تجهيزا فعالا للانخراط في معارك هذا العصر . ان قرنا ونصف القرن ــ بل الاحرى ما يقارب القرنين ــ ليس فترة قصيرة في عمر الأمم ، خصوصا في هذا الزمن الذي يتسارع فيه التغير وتتسابق فيه الاحداث والتحولات ويكاد ما يجري في عقد من السنين يوازي ما كان يجري في الماضي في قرن او قرون . واذا قابلنا ما اتممناه نحن بما أتمته بعض الشعوب الاخرى ــ والمثل الصارخ هنا هو اليابان ــ بدت لنا نواقص « نهضتنا » ومظاهر هزالها . فاليابان بدأت نهضتها في منتصف القرن الماضي اي بعد نصف قرن من بدء نهضتنا ، فاصبحت بعد خمسين سنة قوة دولية استطاعت ان تتغلب على احدى القوى السائدة ــ روسيا القيصرية ــ في مطلع هذا القرن ، ثم اخذت تحث تقدمها حتى غدت تنافس الدول الغربية الكبرى في الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن ، وانتشر نفوذها في شرقي آسيا وانخرطت في الحرب العالمية الثانية وحققت ما حققت من انتصارات في السنوات الاولى من تلك الحرب الى ان تغلبت عليها الولايات المتحدة بمواردها الاوفر وتكنولوجيتها الاكثر تطورا وسلاحها الذري ، فانهارت الى الحضيض ، وكادت جذوة الحياة ان تنطفيء فيها ، ثم ما لبثت ــ على ضآلة مواردها الطبيعية ــ ان نهضت من حضيضها واحيت جذوة جهدها ونشاطها ؛ الى ان غدت اليوم ، بعد اربعين سنة فحسب ، قوة جبارة ترهب الولايات المتحدة (غالبتها ومخضعتها منذ حين قصير) وتنازعها على زعامة الاقتصاد العالمي .

واذا لم يصح ان نقارن حالنا وانجازنا بحال اليابان وانجازها لاسباب عدة ــ تاريخية وجغرافية وحضارية لا مجال هنا للدخول فيها ــ فلا أقل

من أن نقتبس من خبرتها المقياس الحقيقي الذي يجب ان نقيس به نهضتنا ، وهو محصل القدرة الذاتية التي تكونها لنا والتي تسمح لنا بأن نصمد وننجز في هذا العصر وبأن نسرع ونرقي انجازنا يوما بعد يوم .

فاذا اعتمدنا هذا المقياس ـ الذي يحدد في النهاية الفارق بين ما نحن عليه وما يجب ان نكون ـ تبين لنا ان النهضة العربية « لم تستكمل بعد شروط وجودها » ، وهي لا تزال بعيدة عن هذا الاستكمال ، بل ان ما يخشاه المرء هو ان لا تكون سائرة في طريق التقدم والاستكمال : بل ، على العكس ، في طريق الانحسار والانتقاض . فتحرير الارض المغتصبة لا يزال يدور في حلقة مفرغة والعدو يمضي في قضم ما تبقى من ارض فلسطين ، والصف العربي مشتت لا يجمع على راى او قرار ، والنفوذ الاستعماري يوسع مداه ويمكن خطاه ، والموارد النفطية تنهب وتضيع ، والاهدار والاستهلاك الشره ينشران راياتهما ، واهوال الفقر والمرض والجهل لا تزال ساطية ، والانسان العربي ما فتىء على العموم ينوء بالاعباء والقيود . لقد اخذ مفهوم « الانماء » في العقود الاخيرة يطغى على مفهوم « النهضة » ، ولكن ايا كان المفهوم، فان الواقع يدل على اننا في حالة تعثر وارتداد ، حتى ليخيل للمراقب المتفحص ان الحاجة الملحة الان هي السعي الى صد الاتجاهات السلبية ومنع المزيد من التخلف والتدهور ، قبل التكلم عن النهضة والتقدم .

ومن الاسباب التي أدت بنا الى هذه الحال سببان رئيسان ، أولهما ثقل اعباء التخلف التي ورثناها من عهود التحكم الخارجي والانحطاط الداخلي على مدى ستة قرون أو سبعة قبل بدء نهضتنا : فلقد ركدت في هذه العهود حيوية مجتمعنا، واستكنا للتحكم والاستبداد، وانطفات جذوة العقل في كياننا وسلوكنا ، وانتشرت في اوساطنا بشكل رهيب المفاسد الفكرية والسلوكية ، وتخلينا تخليا يكاد ان يكون تاما عن مميزاتنا القومية والحضارية . فلم يكن التحرر من هذه الاعباء المرهقة امرا سهلا ، وكلما خطت « النهضة » او خطا « الانماء » خطوة الى الامام اصطدما بعوائق هائلة ، وكلما نشطت عوامل التحرر والتجدد برزت عوامل تخلفية منبثة في

جوانب حياتنا تخفف فعل هذا النشاط او تلغيه . اما السبب الثاني فوجودنا في منطقة مركزية من العالم تعرضت أكثر مما تعرض سواها لاطماع الامم القادرة المتطورة التي نحت في العصر الحديث منحى الاستعمار ، المباشر منه وغير المباشر ، سعيا الى التحكم بمصائر الامم الضعيفة واغتصاب مواردها والاستيلاء على أسواقها وغزو مختلف نواحي حياتها سياسة واقتصادا وثقافة وغير ذلك . ولا تستطيع هذه القوى المتغلبة ان تبلغ أهدافها الا بمناصرة قوى التخلف وبالعمل بشتى الوجوه والاشكال على اضعافنا واعاقة نهضتنا وتطورنا .

ولكن هذين العاملين الرهيبين لا يلغيان تبعتنا الذاتية . ولعل الشعور بجسامة هذه التبعة هو اول ما يعوز « نهضتنا » في هذه الايام ، كي ترتفع الى مستوى التحديات الهائلة التي تجابهها وتسير قدما في « استكمال شروط وجودها » . وحري بهذا الشعور أن يخفف شكوانا من القدر ومن الغير وأن يحولنا عن تبرير أوضاعنا وانفسنا الى الثورة على هذه وتلك ، وأن يغرس فينا الايمان بأننا مسؤولون أولا وآخرا عن مصيرنا . وحري بهذا الايمان ان يوقظ فينا اليقين اننا لن نسلك سبل النهضة سلوكا آمنا مطردا الا اذا عزمنا عزما صادقا على أن نكون أبناء حقيقيين لهذا العصر ، لا نوجد فيه وجودا خامدا أو منفعلا ، بل وجودا فاعلا ومبدعا ، وذلك بادراك عقلاني وواقعي صحيح للقوى التي تتفاعل في عالم اليوم ، وبالعمل الجاد الصارم لبناء قدرتنا الذاتية بعيدا عن الايديولوجيات المبسطة والشعارات المسلطة ، وبالاستعداد لأداء ثمن هذا الادراك والعمل نضالا مستمرا متجها لا للغير فحسب ، بل لأنفسنا ولها أولا .

- ٢ -

الحضارة الحديثة بدأت في الغرب ، ولكنها اتسعت فيما بعد لتشمل شرقي أوروبا أو ما يكوّن اليوم « كتلة الدول الشرقية » (الشيوعية) وحيثما استقرت جاليات أوروبية كأميركا واوستراليا واصقاعا اخرى

من العالم في مقدمتها اليابان . ولذا ان تكن الحداثة انطلقت من الغرب بمعناه التاريخي المعروف ، فهي اليوم منحى عالمي النطاق تتميز به ، في الاصطلاح المعاصر ، الامم « المتقدمة » او « المنماة » عن الامم «المتخلفة» او « السائرة في طريق النمو » (العالم الثالث) .

وهذه الحضارة تتمتع بحيوية وفاعلية زاخرتين تزدادان يوما بعد يوم ، زخما وانتشارا ، وذلك بفضل عوامل متعددة تضافرت على تكوينها . وأهم هذه العوامل اثنان : الاول هو الايمان بقدرة الانسان على التحكم ببيئته الطبيعية والبشرية والرغبة في تحصيل هذه القدرة لتوفير الموارد المادية وتيسير وسائل العيش والرفاه من جهة ، ولتحرير الانسان – فردا ومجموعا – من جهة اخرى . اما العامل الثاني فهو الانطلاق لامتلاك اسباب هذه القدرة ، وفي مقدمتها العلم نظرا وتطبيقا ، لاحداث التغييرات المطلوبة . ولكل من هذين العاملين طبيعة حية متطورة، ذات قابلية وفاعلية دينامية ، تنمو بالفعل والتفاعل . وقد كان هذا النمو تدريجيا في بدئه ، ولكن ما فتيء ان أسرع حتى اكتسب اليوم قوة تكاد ان تكون كاسحة تمضي في التغيير والتطوير في مختلف جوانب الحياة وفي شتى أصقاع الدنيا .

ولذا ، فالسؤال الاول والاهم الذي يعترض قضية حدود الاقتباس من الحضارة الحديثة ومجالاته ، هو ذلك الذي يتناول القدرة الذاتية على ترشيد الاقتباس وضبطه . فما لم تحصل هذه القدرة يبقى المجتمع التقليدي نهبا لمؤثرات الحضارة الحديثة تجتاحه من كل زاوية وتسطو عليه وتعبث به . ان المطلوب اذن هو ان يتحول هذا المجتمع من حالة الانفعال والخضوع الى حالة من الفعل والسيادة تمكنه من التمييز والاختيار . وبلوغ هذه الحالة الثانية رهين بما يكتسبه المجتمع من عقلانية ، وهي الشرط الاول لحسن التمييز والاختيار سواء بين عناصر الحضارة الحديثة او بين مقومات تراثه الذي منه يستمد خصائصه وأصالته .

وتحصيل هذه القدرة لا يأتي عفوا ولا يمنح من خارج ، وانما يتم بالنضال الداخلي المستمر المتجه نحو تصفية الرؤية وتنمية الادراك الذاتي واكتساب الخبرة المتراكمة ، وذلك بالممارسة الواعية والاجتهاد المتفتح والتخطيط الرشيد . واذا شئنا ان نعمم بشأن مجالات الاقتباس، ركزنا على الانجازين اللذين نعتبرهما رئيسين في الحضارة الغربية الحديثة . الاول هو الانجاز العلمي الذي يكاد ان يكون الطابع المميز او الطاغي لهذه الحضارة . ان قولنا هذا لا ينفي اسهامات الحضارات الاخرى — ومنها حضارتنا العربية — في هذا النطاق ، ولكنه يؤكد الحقيقة البينة ان التقدم العلمي في الغرب — وقد استمد كثيرا من الاسهامات السابقة — اختص باستمرارية وباندفاع نحو التخلص من القيود واختراق الحدود جعلاه يمضي حثيثا في استثمار موارد الطبيعة وتنظيم شؤون الحياة . وقد تكافئت نشاطاته ومآتيه اليوم في المجتمعات « المتقدمة » ، بل لا شك انه هو الدافع الاساسي لهذا « التقدم » . ولا نقصد بـ « العلم » هنا المكتشفات والمخترعات الحديثة التي اخذت تبهر الانظار وتسابق الخيال بكثرتها وروعتها وسرعة تطورها . وانما نقصد ما هو وراءها ووراء امثالها من النتائج ، اي الاتجاه العقلاني الذي يسعى الى الحقيقة ، بالنقد والتجربة ، وبالتخلي عما يظهر العقل والاختبار بطلانه والتمسك بما يثبت صحته ، وبربط الحقائق بعضها ببعض ، وبسلوك سبل التعاون والتبادل سعيا دائما الى كشف المجهول واغناء المعلوم وتعميمه . وعليه يتوجب على اي مجتمع اليوم ان ينشد ويمتلك هذه العقلية العلمية التي تميزت الحضارة الغربية في انمائها واستثمارها . وليس معنى هذا ان هذه العقلية تعم جميع طبقات المجتمعات الغربية ، اذ لا تزال بعض هذه الطبقات تحت سطوة الجهل والخرافة والتوهم ، ولكن الطبقات الفاعلة والقائدة تمتلك اسباب القدرة الصادرة عن هذه العقلية وتوطد اركانها في مجتمعاتها ، بحيث اصبحت هذه المجتمعات باعثة التطورات العلمية في هذا العصر ، وخازنتها ومستثمرتها في اثراء قدرتها الذاتية وفي بسط سلطانها على سواها من المجتمعات .

اما الانجاز الرئيس الثاني فهو في نطاق تحرير المواطن والانسان ، فلقد دعا رواد النهضة الغربية الحديثة ، فيما دعوا اليه ، الى الايمان

بقابليات الانسان والى العمل لتحقيق هذه القابليات من أجل تحرير الفرد والمجتمع . واعتبروا ان سعادة الانسان ورقيه على هذه البسيطة هما الهدف الذي يجب ان يتوجه اليه الجهود . ومن هنا كانت الافكار التحررية التي نشرها الادباء والعلماء والفلاسفة ، وكانت الحركات الهادئة حينا الثائرة حينا آخر (الثورات الدستورية في انكلترا ، الثورة الاميركية ، الثورة الفرنسية ، الثورة الشيوعية ، وغيرها) لتحرير المواطن والانسان من صنوف العبودية السياسية والاجتماعية والاقتصادية . من هنا كانت الدساتير والمواثيق لصد المتسلطين الغاشمين ولضمان الحريات الانسانية الاساسية،ولاقامة دعائم العدالة والمساواة . ولقد اتسعت معاني الحرية والعدالة من نطاق السياسة لتشمل سائر نطاقات الحياة ، من الاقتصاد الى الاجتماع الى التربية وسواها .

على ان الحضارة الغربية لم تبلغ في هذا المجال ــ مجال تحرير الانسان ــ ما بلغته في مجال التقدم العلمي . ولذا ظلت تتعرض للهزات والنكسات والحروب والاهوال ، بل ان المفارقة في اختلاف تقدمها في المجالين زاد هذه الاخطار شدة ونفاذا وادى الى الازمة العنيفة التي تجتازها في هذه الايام . ومع هذا ، لا ينكر ان في هذه الحضارة تراثا تحرريا ضخما جديرا بأن يتحرى ويدرك على حقيقته ويحتذى .

ان عملية الاقتباس من الحضارة الغربية الحديثة يجب ان تضبط وتحدد على ضوء هذين الانجازين الاساسيين . فالتحرير يرسم الغايات والعلم يهيء الوسائل . وعبثا نسعى الى انشاء نظم سياسية واقتصادية وتربوية جديدة او الى خوض غمار الادب والفن والفلسفة اذا لم نستهدف توسيع مدى حرية المواطن والانسان بنشر الديموقراطية السياسية والعدالة الاقتصادية والاجتماعية ، وبتفتيح مواهبه العقلية والادبية ليتجرد من أوهامه وسائر قيوده الذاتية . على ان هذا الاستهداف لا يعطي ثماره المرجوة الا اذا دعم بوسائل العلم . فبناء الدولة وسن الدساتير والقوانين وتنظيم الادارة ، وتخطيط النهج الاقتصادية وتنفيذها ، وتطوير العلاقات الاجتماعية وترقيتها ، وتسديد

الوسائل التربوية وتجديدها ــ ان كلا من هذه التوجهات وسواها من جوانب انهاض المجتمع واحيائه قد اصبحت اليوم موضوع علم او علوم ولم يعد يصح ان تبقى رهينة الغرائز والنزوات والعصبيات البدائية . وانا لنرتكب خطأ شائنا وضارا اذا اقتصرت نظرتنا الى العلم على نواحيه الطبيعية فحسب فحصرناه في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب والهندسة وامثالها . انه ينبسط على الحياة الانسانية كما ينبسط على البيئة الطبيعية،وان يكن بصعوبة أقسى ونتائج أدنى بسبب تعقد العوامل الانسانية وتشابكها وحركيتها .

ولعل اقتباسنا في ميادين الادب والفن والفلسفة يقع في حيز الغايات اكثر مما يقع في حيز الوسائل . فمنها نستمد ما يفيدنا في تصفية رؤيتنا من حيث انشاء الانسان المتحرر عقليا ونفسيا واذكاء ادراكنا لكيفية هذا الانشاء . ولذا ، وجب ان نطلع اطلاعا نيّرا على انجازات الحضارة الغربية الحديثة ــ بل الحضارات التاريخية كافة ــ في هذه الحقول الانسانية لاغناء جهدنا التحرري .

واهم من هذا ان يكون لنا ادراك صحيح وعميق لتراثنا الخاص في هذه الحقول وان نتخذ منــه المنطلق الاول لجهدنا التحرري ، لثرائــه بالتطلعات الانسانية ولكونه ، اولا وآخرا ، منبع اصالتنا ومرتكز هويتنا القومية والحضارية . على انه لابد من السعي الى الكشف عن جوهــره وتنقيته مما علق به من شوائب ومفاسد لحقت به في عهود الركود والانحطاط التي مررنا فيها . وعندها نرى هذا الجوهر في كينونته التحررية الخالصة. نعود فنؤكد ان هدف نهضتنا الاول يجب ان يظل تنشئة المواطن العربي والانسان العربي على التدرج في التخلص من عبوديته وتحقيق تحرره . وهذا التدرج هو صلب التقدم والرقي ، وهو آخر الامر المعيار الصحيح ــ خلافا لاكثر المعايــير المستخدمــة اليــوم ــ للتمييز بــين المجتمعات « المتقدمة » والمجتمعات « المتخلفة » . وهو الضابط الذي يجب ان يحكم ويفصل بين ما نستمد من تراثنا وما نهمل ، وبين ما نقتبس من الحضارة الغربية وما نرفض .

لا شك في ان التضامن العربي عامل هام من عوامل النهضة ، وذلك لاسباب عدة أهمها اثنان . أولهما ان هذا التضامن هو مرتكز الهوية العربية والانتماء العربي . فالنهضة العربية لتكون حرية بهذه التسمية ، يجب ان تشمل العرب جميعا وتستند الى اصالتهم والى تحفزهم المشترك لانشاء حياة تماشي هذا العصر وتعد لمستقبل افضل . وما لم تكن كذلك توزعت مناحيها وتفككت اواصرها وانقسم العرب الى امم مختلفة وعجزوا عن تكوين امة واحدة . فلا يمكن اذن التحدث عن نهضة عربية الا اذا كانت لها هوية مشتركة وخصائص ذاتية لا تقوم مقامها اية هوية او خصائص اخرى ؛ وما لم يشعر العاملون فيها والمفيدون منها شعورا متسلطا بهذه الرابطة الاساسية التي تجمعهم .

اما العامل الآخر فهو ان النهضة ــ بمعنى صيانة الحياة القومية واحيائها ــ تحتاج الى قوى بشرية مؤهلة والى موارد طبيعية وافية . وهذه الحقيقة تنطبق على هذا العصر اكثر مما تنطبق على العصور السابقة . فحيثما نقلت نظرك اليوم أبصرت صراعات محتدمة وسباقات حامية ، ولا عدة نافعة للمجتمعات في هذا المعترك الا ما تتجهز به من قدرة على دفع اخطار الخارج من جهة وعلى الاحياء الذاتي من جهة اخرى . ونحن العرب ، كما هو معروف ، محاطون باخطار هائلة تنفذ الى صميم كياننا . منها الاستعمار بأشكاله المختلفة الذي يعمل لاستغلال مواردنا ولتمكين تبعيتنا والتحكم بمصائرنا ، ومنها الصهيونيةالاستيطانية التوسعية التي توطد اركانها في فلسطين وتسعى بمشاركة القوى الاستعمارية الدولية الى بسط سلطانها العسكري والاقتصادي علينا والى امتصاص قدراتنا بالحروب وغير الحروب لنبقى في تخلفنا بل لنمعن في هذا التخلف . هذا من حيث الاخطار الخارجية ، أما من حيث المطالب الداخلية فثمة الفقر المنتشر والجهل المتفشي والمرض المتاصل ، وثمة بالتالي المقتضيات الضخمة ؛ البشرية والمادية ، للتنمية (أو النهضة) السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية . وبدهي ان هذه

المطالب كلها تستدعي حشد الجهود بدلا من توزيعها وتجميع الموارد بدلا من بعثرتها . والحشد والتجميع انما يأتيان عن طريق التضامن والتعاون . وها نحن نرى الامم الناهضة ــ على ما بينها من اختلافات تاريخية وفواصل قومية ــ تسعى الى توسيع روابطها وتوثيق العرى القائمة بينها في سبيل تبادل المنافع واثراء القابليات والقدرات . فكيف اذن بمجتمع كمجتمعنا العربي يتمتع بروابط تاريخية ولغوية وثقافية ومصلحية تؤهله لتكوين مجتمع متضامن ، بل امة واحدة ، اذا صفت نوايا حكامه وقويت عزيمة ابنائــه ؟

اذن لا نهضة عربية بدون تضامن عربي . اما ما اذا كان هذا التضامن قد حقق اغراضه حتى الآن ، فهذا امر يدعو الى الشك المرير ، بل لعلي أقول الى الانكار المطلق . فالانقسام والتوزع والتبعثر هي السمات الطابعة للحياة العربية ، سواء في مجابهة الاستعمار والصهيونية او في الاعداد الداخلي لنهضة مشتركة ــ هذا على الرغم من المواثيق والمعاهدات والاتفاقات المعقودة عن طريق جامعة الدول العربية او خارجها . والمؤلم حقا اننا قد اصبحنا في الساحة الدولية . ولدى القوى النافذة مثالا للتفرق والتمزق لا نكاد نجتمع على رأي ولا نستطيع ــ حتى اذا اجتمعنا ــ ان نمضي في تنفيذه . ومرد ذلك الى كون « التضامن » و « الوحدة » او امثالهما هي عندنا ــ وعند حكامنا بخاصة ــ اسم بلا مسمى وشعار بلا مضمون ، نعلنها للملأ دون صدق او ايمان ، ونخدر نفوسنا برنينها المغري بدلا من ان نبعث هذه النفوس لبذل ما تتطلبه من جهد وتضحية . اترانا عدنا ، باقنعة والبسة مستجدة ، الى عهد القبائل والعشائر ام الى عهد الامارات والدويلات المتناحرة ضمن الخلافة الواحدة ، ام الى عهد « ملوك الطوائف » في الاندلس المفقودة ؟ اترانا جديرين بان نتعظ بهذه الذكريات المريرة في تاريخنا ، او بما تبديه لنا من كل جانب مطالب الحياة المعاصرة .

ان الشعوب العربية تحن الى التضامن والتجمع سواء بدوافعها القومية الاصيلة او بما اخذ مفكروها ومستطلعو ماضيها وحاضرها ومستقبلها

يتبينون من غايات وحاجات . ولكن الذين بيدهم الامر يوجهون هــذه الشعوب توجيها مخالفا ، فاذا المجتمع العربي ينقســم اثنتين وعشرين دولة ؛ واذا دعائم القطرية تتركز في هذه الدول سياسـة وعسكرة واقتصادا وتعليما وما الى ذلك ، حتى بدانا نخشى على صحة الانتماء أن تفســد وعلى خصائص الهوية المشتركة ان تضيع .

ولذا ، ان طريقنا لاتزال طويلة وعسيرة ، وهي تقتضي نضالا مستمرا، اولا لتحديد مفهوم « النهضـة » ومطالبها في هذا العصر ، ومن بعد الاعداد انفسنا لتوفية هذه المطالب ، ومن ضمنها صد نوازع التفرق والتناحر ، وتنمية اسباب التعاون والتضامن . ولن نحقق ايا من هذا الا اذا كنــا صادقين : مع غيرنا ومع انفسنا اولا ، واذا كافحنا رذائل الخداع التــي هي اشد اعدائنا في هذه الايام .

حول مستقبل اللغة العربية

ا) اذا كان المقصود من « تحديث اللغة العربية » انه « صار بوسعها اداء العلوم والاداب والفلسفة المعاصرة » ، فاني اعتقد ان هذا التحديث قد سار شوطا بعيدا خلال القرن والنصف الماضيين وذلك بفعل مبادرات الدول العربية بعد استقلالها الى اتخاذ اللغة القومية اللغة الرسمية في التشريع والادارة والقضاء وغيرها من الاعمال الحكومية (بعد ان كانت السيادة قبل ذلك للتركية او الفرنسية او الانكليزية) ، والى جعلها لغــة التعليم في المدارس وتدريجا في الجامعات ، والى انشاء المؤسسات المعنية بها وفي مقدمتها المجامع اللغوية . وقد كان لهذه المجامع نشاطها في تعريب المصطلحات التي تزخر بها العلوم الحديثة ، كما كان لاساتذة الجامعات ــ وفي طليعتهم اساتذة جامعة دمشق ــ سهمهم في هذا المضمار . كذلك لا ينكر فضل الادباء والمفكرين والصحفيين وكتاب المسرح ومحرري اذاعات الراديو والتلفزيون الذين بعثوا دما جديدا في جسم اللغة سواء بكتاباتهم او بترجماتهم وجعلوها اقدر على التعبير عن النوازع الاصيلة وعن المشاعر والافكار المستجدة . كل ذلك وغيره فرضته قوى التحديث التي سطت

على الحياة العربية ، فأخرجت اللغة من الكتب الصفراء ومن الدوائر الضيقة التي كانت محصورة فيها الى ميادين التعامل والتفاعل ومسايرة الحياة في تطورها .

على انه لا تزال تعترض اللغة العربية في هذا المجال صعاب شتى ، اهمها ثلاثة : احداها خارجية واثنتان داخليتان . اما الصعوبة الخارجية فناتجة عن تسارع تطور العلم وتكاثر محدثاته في جميع الحقول . فثمة سباق مرهق بين تحديث اللغة من جهة وتضخم مهمتها في مجاراة ذلك التطور من جهة اخرى . ونحن نرى اليوم ان بعض اللغات الغربية الحية ذاتها — كالايطالية والفرنسية والالمانية — التي كانت في ازمنة سابقة حاملة لواء العلم والثقافة ومرجع طلابهما ، تتخلف اليوم عن الانكليزية في الميادين العلمية ، وذلك بسبب تفوق البلدان المتكلمة بهذه اللغة — والولايات المتحدة بخاصة — في هذه الميادين . فالانكليزية اخترقت حصون التعليم الجامعي ومراكز البحث العلمي في جميع البلدان المتقدمة — ناهيك بالمتخلفة — وطغت على غيرها في المؤتمرات والندوات والمنشورات العلمية، حتى انها لتكاد ان تغدو لغة العلم العالمية كما كانت اللاتينية في الغرب والعربية في الشرق في القرون الوسطى . واذا كان الامر كذلك بشأن اللغات التي كانت رائدة في عملية التحديث ، فكيف هو بشأن اللغة العربية التي لم يمض على تحديثها سوى فترة قصيرة نسبيا ؟

اما الصعوبتان الداخليتان ، فاولاهما تعثر قضية تيسير قواعد اللغة العربية — هذه القواعد التي تثقل كاهل الناشيء ، بل حتى المتمرس ، في استخدام الفصحى تحدثا والقاء وكتابة . فثمة استثناءات وشواذ واحكام تفصيلية متشعبة لعله كان لها يبررها في العهود التي كانت اللغة هي شاغل العلماء الاهم ومصدر الثقافة الاول . اما اليوم فمطالب العالم والثقافة قد تضخمت وتفرعت وهي ماضية في التضخم والتفرع ، ولم يعد باستطاعة الطالب او المشتغل بالعلم والثقافة ان يصرف من الجهد والوقت في اتقان اللغة ما كان يصرفه اسلافه او ما هو بحاجة الى توفيره للتقدم في الحقول الاخرى وهي الحقول البارزة والملحة في هذه الايام . وقد يكون من اسباب

انتشار الانكليزية مرونة قواعدها وسهولة تعلمها ومدى تجاوبها مع حيوية الشعوب الناطقة بها .

وما كانت صعوبة العربية هذه لتبلغ هذا الشأو لولا انها التقت العائق الآخر وتمادت بفعله ، وهو قلة العناية التي بذلتها السلطات التربوية في البلدان العربية في تدريب معلمي هذه اللغة وتثقيفهم . والمعلم ـ لا المنهج ولا الكتاب ولا المنظم والقرارات ـ هو مبعث العملية التربوية ، واعداده هو محورها الاساسي . وقد تطورت هذه العملية في ايامنا تطورا بالغا ، هدفا ومنهجا وتقنية ، ولم يمس هذا التطور معلم اللغة العربية الا مسا خفيفا ، كما ان المعلم لم يؤهل فكرا وثقافة ليحبب طلابه بهذه اللغة وليقربها من مداركهم وليشيع في نفوسهم الرغبة في اتقانها والتمتع بغناها وغنى تراثها .

هذا في يتعلق بمجاراة اللغة العربية اللغات العلمية في مضمار اداء العلوم والاداب والفلسفة . وثمة مضمار آخر حققت فيه العربية قدرا من هذه المجاراة : وهو اتخاذ منظمة الامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة اياها لغة من لغاتها الرسمية ، في الخطب التي تلقى والمنشورات التي تعد ، مع توفير الوسائل للترجمة منها واليها . وفي هذا ما فيه من اقرار دولي باهمية لغتنا القومية . على ان مرد هذا الاقرار هو الى مدى انتشار هذه اللغة في العالم وتعدد الدول العربية والاسلامية في المنظمات الدولية وما انشأته من منظمات اقليمية ، اكثر منه الى ما ادركته هذه اللغة من تحديث وتطور ذاتيين باتجاه مجاراة اللغات العالمية .

ان هذه المجاراة لا تتم على حقيقتها الا عندما يصل الانتاج العلمي والادبي والفلسفي العربي الى مستوى عالمي . فاللغة لا تعلو عن كونها اداة . اما الجوهر فهو ما تعبر عنه من فكر وعلم . والاهمية الواقعية ـ لا التاريخية ـ لاية لغة من اللغات رهينة بمقدار انخراط اهلها في ميادين الكشف والابداع . لقد كانت اللغة العربية لغة عالمية ـ بل اللغة العالمية الاولى في بعض الحقب ـ لما كان ينتجه اعلامها في ميادين العلم والفلسفة...

وكان رواد هذه الميادين في الغرب يسعون الى تعلمها ـ لا من اجلها ذاتهاـ بل لاقتباس هذا الانتاج . فالى استعادة هذه المكانة العالميــة ، او الى الارتفاع قدر الامكان الى مستواها ، يجب ان يطمح المعنيون بتحديث اللغة العربية ، بل الحريصون على سلامة النهضة العربية عامة ونجاعتها .

٢)

ان الشقة بين اللغة الفصحى واللهجات المحلية في البلدان العربيــة ، هي ، لاسباب تاريخية وجغرافية وحضارية ، من البعد والاتساع بحيث لا يمكن تجاوزها تجاوزا تاما ، او على الاقل في وقت قريب . وانما الذي يمكن هو العمل على صد اتساعها وعلى تضييقها . والمجتمع العربي سائر في هذا الاتجاه ، وان لم يكن بالسرعة المقتضاة . ان هذه السرعة ضرورية بسبب ما ذكرنا من تكاثر حاجات النهضة ، بل مطالب الحياة ، في هذه الايام . فلا خير في اضاعة وقت الناشئة وسواهم في تعلم الفصحى وكانها لغة جديدة . بل الخير في السعي الى جعل الفصحى والمحكية ما امكن لغتين متقاربتين لا متباعدتين ، ان لم نقل لغة واحدة كما هو الامر في البلدان الحية المتحضرة . ولقد اسهم انتشار التعليم وتوسع وسائـل الاعلام السمعية والبصرية ونفاذها الى بيوت الجماهير التي اخذت تعتمدها اكثر فاكثر للتسلية والترفه ـ اسهم هذان العاملان وسواهما من تطورات الحياة الحديثة في تليين الفصحى من جهة وفي تقريبها من اذهان الجماهير من جهة اخرى . وبدات تنشا لغة وسطى بين الفصحى والمحكية تحاول المحافظة على قواعد الاولى واستيعاب مضمونات الثانية .

واذا اردنا اختصار القول وتركيزه ، اكدنا على ثلاثة عوامل تخدم قضية تجاوز الازدواجية في التعبير : اولها اعلاء مستوى الفكر والعلم والثقافــة وتعميمها في المجتمع . فالمحكية، نظرا الى افتقارها الى القواعد والضوابط، لا تلائم اغراض هذه المناحي العقلية التي تفرض ، اول ما تفرض ، الدقة والانتظام اللذين توفرهما الفصحى . يضاف ان لهذه ـ بخلاف المحكية ـ تراثا

ثريا في هذه المجالات يؤهلها لان تعود لتكون لغة فكر حي وثقافة ناشطة . ومن جهة ثالثة ، ان العلم بناء موحد وموحد ، ولما كانت المحكية تتوزع لهجات متباينة ، فمن الطبيعي ان يتجاوزها العلم الى ما يضمن وحدة التعبير وانسجامه . ولقد ذكرنا ان التطور العلمي المعاصر يتجه نحو لغة واحدة ، هي الانجليزية ، التي كادت أن تصبح لغة العلم الاولى — على الاقل في المواطن الغربية — فهل من المعقول ازاء هذا الاتجاه التوحيدي العالمي ، ان يتفرق العلم العربي حسب لهجات البلدان العربية المختلفة ؟ ان هذا التفرق مناقض لطبيعة العلم ، وهو بعد ذلك امر سيء اذ يخالف تطلعات الشعوب العربية نحو التعاون والتضامن والوحدة .

وما قيل في العلم يقال في الفلسفة ، وهي جهد عقلاني متقدم وراق ، يتطلب ما يتطلب العلم من اداة تعبيرية دقيقة ومنتظمة ، ميسرة للحوار وتبادل الفكر ، ومتضمنة بالتالي ميزات الوحدة الذاتية . اما الادب ، فهو اكثر اتصالا « بالواقع المباشر » ، واقرب الى التعبير عن النوازع الانسانية الطبيعية ، ولذا فللمحكية فيه مجال غير متيسر للعلم والفلسفة. ومن هنا ما نشعر به تصنع وقسر عندما نقرأ او نسمع حوارا بالفصحى في بيئات متخلفة او حول موضوعات بدائية . ولكن ، هنا ايضا ، كلما ارتقت الاذهان وتطورت موضوعات الادب وامتدت الى ما بعد المحلي والبدائي لتشمل الهموم والتطلعات القومية والانسانية ، نفذ الادب الى مضامير المحكية وغزاها غزوا طبيعيا — لا قسريا — وجعل الفصحى اداته الفضلى .

ان القضاء على ازدواجية اللغة قضاء تاما لم يحصل حتى في المجتمعات المتطورة . فلا تزال للمحكية مجالاتها في المناطق المحلية وفي التعبير عن الشؤون العادية المباشرة ، خصوصا لدى الفئات غير المثقفة . ولكن شتان بين الوضع هناك والوضع في مجتمعنا العربي من هذا القبيل . ويقيننا ان عبء هذه الازدواجية سيخف عندنا بارتقاء نتاجنا الفكري والعلمي والادبي وانتشاره ، وبالتقارب بين الثقافة والحياة . ان لدينا اليوم لغتين احداهما للثقافة واخرى للحياة ، وعندما تصبح الثقافة هي لب الحياة ،

وعندما ترتفع الحياة الى مستويات العقل وتقتبس مزاياه ، تضيق فسحة الازدواجية وان لم تزل زوالا تاما .

اما العاملان الآخران في هذا التضييق ، فقد عرضنا لهما في جواب سابق . وهما : تيسير قواعد الفصحى وحسن تدريب معلميها وتثقيفهم ، ولا ضرورة للاعادة والتكرار في هذين الشأنين . ولكن لابد من تأكيدهما اذا اردنا للفصحى ان تكون لغة الثقافة والحياة معا ، واذا شئنا لناشئتنا ان تقبل عليها بشغف ، ولرجال العلم والفكر عندنا ان لا يعزفوا عنها الى لغة اجنبية بسبب الصعاب التي يلقونها في تطويعها واتقانها .

وخلاصة الجواب عن هذا السؤال هي ان اللغة العربية في وضعها الراهن لم تستطع بعد تجاوز الازدواجية في التعبير ، وان كانت سائرة في هذا المجال . والواقع ان هذه القضية ليست في الاساس قضية لغوية ، بقدر ما هي قضية حضارية متصلة بنهضة المجتمع العربي وبارتقائه الفكري والعقلي . فالمشكلة الاصيلة ليست في تخلف اللغة ؛ بل في تخلف اصحابها . ذلك ان تطورها تابع لتطورهم وقدرتها على النهوض بمهماتها – ومن ضمن هذه المهمات استيعاب المحكي وتجاوز الازدواجية – منوط اولا بقدرتهم وحيويتهم .

٣) عندما نتكلم عن العوامل المؤدية الى توحيد العرب – او اية شعوب اخرى – يقتضي ان نميز بين العوامل التي لها قابلية التوحيد وتلك التي تحقق هذه القابلية وتخرجها الى حيز الفعل . فالمشاركة في اللغة والثقافة والتاريخ والمصالح المادية والمعنوية التي طالما شدد كتابنا عليها كعناصر موحدة للعرب ، هي في الاكثر عناصر مهيئة للتوحيد ومؤهلة له ، ولكنها ليست بالضرورة محققة اياه . والدليل على ذلك ان شعوبنا ظلت قرونا طويلة ذات لغة وثقافة وذكريات تاريخية ومصالح كلها مشتركة ومع ذلك كانت منقسمة دولا متفرقة واقاليم مشتتة . وسبب ذلك انها لم تكن سيدة ذاتها ، بل كان يتولى امرها اسياد من داخلها او من الخارج يستغلونها لمصالحهم واطماعهم ويمتصون مواردها ويقسمون قابلياتها وبنتيجة هذا التحكم والافقار وما ادينا اليه من ركود الحياة العربية

وانهيارها ، ضؤل ـ ان لم نقل نال ـ وعي ابنائها بروابطهم وقواسمهم المشتركة . ولم يبدأ هذا الوعي بالتنبه الا عندما أخذ العرب يتاثرون بقوى الحضارة الحديثة و « ينهضون » من ركودهم . على ان هذا الوعي لايزال مضطربا مترجرجا . وعلى رغم الفترة الطويلة نسبيا التي مرت بها هذه النهضة وعلى الرغم ايضا من الاخطار الهائلة التي تحيط بالعرب حيثما كانوا لم يتحول الوعي بعد الى ارادة حاسمة للعمل بصدق وجد في سبيل هذا التوحيد . ومن هنا يمكننا القول ان العرب ، وان كانوا يتمتعون بالعوامل المؤهلة للتوحيد ـ ومنها اللغة ـ فانهم ما فتئوا يفتقرون الى العوامل الفاعلة والمحققة ، وهي نضوج الوعي وصدق الارادة وجدية المسعى .

ودليل آخر على ما ذكرنا هو قيام امم موحدة تتمتع بروابط قوية على رغم اختلاف لغات ابنائها ، والمثل الساطع لذلك هو سويسرا . وفي كل من الاتحاد السوفياتي والهند والصين لغات ولغات وفروق اقليمية وجنسية متعددة ، ولكن هذا كله لم يمنع شعوب تلك البلدان من أن تحقق وحدتها او أن تسير جاهدة في مضمار هذا التحقيق . وفي مقابل ذلك ، نرى شعوبا ذات لغة واحدة ـ كالشعوب الناطقة بالاسبانية في اميركا اللاتينية ـ منقسمة دولا متعددة وكيانات قومية مختلفة .

وصفوة القول اذن هي ان اسهام اللغة في توحيد العرب لا ينبع من اللغة ذاتها بقدر ما ينبع من انفسهم . فان صدق عزمهم على التضامن والوحدة ، وادركوا مصالحهم المشتركة في السيادة والتحرر ومجاراة الحياة المعاصرة ، وطمحوا الى استعادة مكانتهم السابقة ، وادوا ثمن ذلك كله جهدا وبذلا ومعاناة ، فان لغتهم الواحدة وسائر روابطهم تاتي عونا لهم في هذه السبل كلها . وبدون هذا العزم والادراك والطموح والاداء تبقى اللغة العربية ـ على ما تتمتع به من ميزات ذاتية ومن مقام تاريخي ومن مؤهلات قومية ـ عاجزة عن أن تؤدي دورا فاعلا في توحيدهم ، ويظل فعل العصبيات القطرية والفئوية واطماع ذوي السلطة والاوهام والانحرافات السائدة أقوى من فعل اللغة وعائقا لاي دور يمكن ان تؤديه .

١٩٨٥

★ ★ ★

نجيب محفوظ

حول النهضة العربية

١ - سؤالكم الاول هو « هل استكملت النهضة العربية شروط وجودها ؟ »

فما معنى النهضة ؟.. النهضة اول ما تعني ان تتحرر الامة من اي تسلط على ارادتها قد يعوق المسيرة التي تختارها لنفسها . وهي تعني بعد ذلك التنمية الشاملة ، مثل تربية الفرد وتاهيله على ضوء هدف كبير معين ، وزراعة كل قطعة ارض يمكن زراعتها ، وانشاء الصناعات المستوحاة من البيئة وغيرها اذا املت الضرورة ذلك لاشباع حاجات الجماهير ودون ان يقتصر ثمرها على فئة دون فئة او طبقة دون طبقة ، وجعل الخدمات حقوقا مقدسة كالتعليم والصحة والثقافة والمواصلات والترفيه وتكريس حقوق الانسان .

وما معنى العربية ؟.. اي التي تشمل الامم العربية من المحيط الى الخليج ودون انتظار لتحقق وحدتها السياسية ، فمبادىء التربية والتاهيل العلمي تعني في هذه الحال ما يتفق عليه العرب من خلال جامعتهم وما يطبقونه في اقطارهم . والزراعة تعني تنفيذ الخطة الزراعية على اساس ان ارض العرب وحدة متكاملة ، وكذلك في الصناعة وفي اي مرفق .

واستطيع الاجابة الآن بأن كل اقليم عربي قد نال حظا من النهضة في نطاقه على تفاوت في الدرجة والقيمة ورغم عثرات الطريق ونكساته ، وانها بصفة عامة لا تتنكر لتراثها وتنفتح لحضارة العصر ، لعلها لا تسير بالسرعة المأمولة لانها تحارب في أكثر من جبهة في الداخل والخارج ولكن اي مقارنة موضوعية بين حالنا قبل قرن ونصف وحالنا الآن يقطع بأننا تغيرنا وتغيرنا كثيرا والى الافضل . اما النهضة بالمعنى العربي فانها لم تبدأ او لم تكد تبدأ ، لقد فهمنا الوحدة على انها وحدة سياسة وحكومة، وعلينا ان ننسى ذلك حتى يذكرنا بنفسه في الوقت المناسب ، الوحدة التي كان يجب ان تنطلق من الجامعة العربية ، والتي كان يجب الا تتوقف لاي خلاف او تناقض ، هي وحدة الثقافة والتربية والاقتصاد . وهذا ما يعوز نهضتنا ، بل غياب ذلك هو ما يجعلها نهضة اقليمية متعثرة وهزيلة ، وقد يتصور البعض ان لا امكانية لوحدة ثقافية او اقتصادية بلا وحدة سياسية . والرد على ذلك انه رغم مقاطعة مصر في الفترة الاخيرة فان أبناءنا ما زالوا يعملون في بلاد العرب مما يقطع بأن المقاطعة لم تشمل بعض أوجه التنمية الاقتصادية والثقافية . يجب ان يكون لنا برلمان ثقافي اقتصادي تنموي واحد وأن تكون قراراته ملزمة في جميع الظروف والاحوال ، من توافق وتناقض ، وتصالح وتخاصم .

- ٢ -

... فما حدود الاقتباس وما هي مجالاته ؟. الجواب بكل بساطة لا حدود للاقتباس ولا حجر على مجالاته . فقد نقتبس كل شيء وقد لا نقتبس شيئا على الاطلاق . العبرة في مواجهة الواقع ودراسة أبعاده

والعمل على تحقيق احتياجاته بما يؤدي في النهاية الى الهدف وهو النهضة الشاملة . وما يلزمنا في هذا المجال هو الفكر الحر المستقل الذي لا يقدس تراثا لا لشيء الا انه تراث او ينبهر بمعاصرة لا لشيء الا انها معاصرة . ففي مقدمة واجباتنا القومية ان نربي ابناءنا تربية فكرية ، استقلالية لا تربية الحفظ والتسميع ، ان نعودهم منذ النشاة الاولى على التفكير الذاتي وحرية الراي ، ولا خوف بعد ذلك من فتح النوافذ على كافة النظم السياسية والاقتصادية والتربوية والادب والفن والفلسفة ، وسنجد فيها في تلك الحال زادا وثراء واستنارة لاسما او هيمنة او استعمارا . وبالعقل الحر يجب ان نبدا من الواقع ، لا من التراث ولا من المعاصرة ، ان نواجه تحدياته ، وسنجد حتما الحل الصحيح ، وسنجد مرجعه في التراث او المعاصرة او في انفسنا او في ذلك كله جميعا . وقد سارت نهضتنا منذ قرن ونصف دون ان تنتظر الاجابة على هذا السؤال المطروح الذي يتكرر في حياتنا مع كل جيل منذ الجبرتي . وتكراره يعني اننا نصر على فرض النظرية على الواقع لا ان نستلهم النظرية من الواقع . وربما دل تكراره على نقص آخر هو اننا نخاف التفكير الحقيقي حول واقعنا فآثرنا التفكير حول التفكير على سبيل التشبه بالمفكرين ان لم تكن مثلهم . الم يكن الاجدر بنا ان نحاول خلق فلسفة او اقتصاد او سياسة بدلا من الكلام الذي لا ينتهي حول التراث والمعاصرة ؟ ... ولو حاولنا ذلك لاهتدينا الى الجواب الصحيح من خلال التفكير الصحيح . وقد واجهتني المشكلة نفسها عند بدء حياتي الادبية ، وكنت قد اطلعت على مختارات من التراث شعره ونثره وتزودت بما أستطعت من الادب العالمي بشتى اساليبه ، وترددت وقتا غير قصير امام الاختيارات المتاحة ، وسرعان ما رجعت الى نفسي وما يدفعني العشق الى التعبير عنه فكان مرجعي في الاختيار بصرف النظر عن الحداثة ، وكان مشجعي على تغيير ما اخترت بما يناسب موضوعي وقارئي ، وبذلك اسهمت في خلق ادب مصري عربي لا يشك قارئي في جنسيته رغم استفادته الواضحة من الادب العالمي . ولو اجلت الكتابة حتى أستقر على نظرية لما كانت رواياتي الاولى قد ظهرت حتى اليوم . لا نجاة لنا الا في الاستقلال ولا مصرع لنا الا في التقليد الاعمى .

كون التضامن العربي عاملا هاما من عوامل النهضة فهو من البديهات المسلم بها . وهذا هو تأثير التضامن حيثما وجد ، وبين أي أطراف تحقق . ونحن اذ نزكيه فكأنما نزكي الكل مقابل الجزء ، والقوة تجاه الضعف ، أو اليد الكاملة ازاء اصبع أو اصبعين . ولكل وطن عربي امكانياته المحدودة ، وثمة أوطان لا امكانيات لها تستحق الذكر ، فاذا القينا على الوطن العربي الكبير من المحيط الى الخليج نظرة شاملة تعددت امكانياته وتنوعت قدراته مما يعد بخلق امة قوية متقدمة . ومما يلاحظ في هذا الشان اوجه الشبه بين اجزائه فيما يعتبر التشابه فيه ميزة ايجابية وقوة دافعة ، فهو يتفاهم بلغة واحدة ويتعامل مع ثقافة واحدة ويصدر من اعماق الزمن بتاريخ متلاحم فضلا عن تجاور الامكنة . وسهولة الاتصال وكثرة الاختلاط بين سكانه . كما أن امكانياته تستقر على نحو تكاملي كأنها خلقت للتعاون والتناغم كأعضاء الجسم الواحد ، فهنا كثافة بشرية عظيمة ، وهناك أراض صالحة للزراعة واسعة مترامية وثمة مراكز كالمصارف عامرة بالاموال . ولا نكران في أن ما تحقق من تضامن قد قدم للعرب — على ضعفه وتشتته — خدمات جليلة ، تجلت في احسن احوالها أيام الشدائد كما حصل أيام العدوان الثلاثي على مصر ، وكما حدث في الفترة الصاعدة من حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، وما تبادلناه على طول تاريخنا الثقافي من فوائد اعظم من أن يذكر . ولكنه — التضامن — اليوم مريض مخمور يكابد الهذيان والتخبط ، وبوسعه لو قهر اعراضه القاتلة أن يعيد خلق امتنا من جديد وان يبلغ بها الدرجة التي تليق بها من التقدم .واذا جاز لي ان اجسد حلمي في هذا الموضوع الحيوي فاني أقترح :

١ — الا نفكر على الاطلاق في الوحدة السياسية او الزعامة ، ان نعتبر ذلك خطوة خطيرة تحل عندما يحل الصفاء الصوفي محل الطموح الذاتي ، وحتى اذا لم تتحقق فلنكن ولايات عربية مستقلة من ناحية الحكم ، ولنركز على المنافع المشتركة .

٢ — ان نترك ما نختلف فيه لسياسة الولاية الداخلية ، فهي حرة فيمن تحالف أو تعادي ، فيما تعتنق من مذاهب ، وسنجد ارضا مشتركة في التكامل الاقتصادي والثقافة والتعليم والرياضة والترفيه

٣ ـ لنحرص على الجامعة العربية ونجدد حيويتها باعتبارها مركز الامور المشتركة ومهدا لتذويب الاختلافات وجامعة للبحوث والمعلومات التي تساند النهضة وتخطط لها .

٤ ـ ان يتحدد موقف اي ولاية عربية حيال الوطن العربي اما بالتايد ان امكن او بالحياد اذ لم يمكن التايد ولا موقف ثالثا على الاطلاق

٥ ـ ان نبث الايمان بهدف اعلى ، وليكن هو التقدم والخروج من التخلف ، فعدونا الاول هو التخلف وهدفنا الاعلى على الارتقاع الى مستوى الابداع والعطاء في هذا العصر .

حول مستقبل اللغة العربية

اللغة وجه من وجوه الحضارة ، يتشكل بشكلها ويتقدم بتقدمها ويتنوع بتنوعها ويستوعب من الافكار والاشياء ما تستوعب . والفارق كبير وملموس بين ما كانت عليه العربية التقليدية وبين ما هي عليه اليوم في جميع مظانها من كتب رفيعة وكتب جماهيرية او صحافة يومية . والمكتبة العربية حافلة بالكتب الموضوعة والمترجمة في الآداب والانسانيات والفلسفة والعلوم ، بل لا تخلو مادة من قاموس خاص يفي باحتياجاتها ويرجع اليه عند الحاجة . كل اولئك يدل على حيويتها ومرونتها واستجابتها للزمن كما يدل على غيرة ابنائها ونشاطهم وقيامهم ببعض حقها عليهم . ولكن من المغالاة غير المحمودة القول بانها بلغت الكمال في ذلك .

١ ـ مازال تطورها خاضعا للاجتهاد الاقليمي ، فتتعدد التسميات بتعدد المجتهدين وتتنوع المصطلحات ، ولا شك انه توجد امور اساسية في العلم والفلسفة والآداب والانسانيات يجب ان يتفق عليها ، ولن يتاح لها الاتفاق الا في نطاق التكامل والتضامن .

٢ ـ ان حركة تقدمها تعتبر بطيئة بالقياس الى روح العصر المتمثلة في سرعته وتفجر معلوماته وكثرة مخترعاته وتنوع سلعه ، وقد تبدو

فكرة التعريب عديمة الجدوى فعلينا ان نثري لغتنا بالاسماء العالمية وان نترك تثنيتها وجمعها للسليقة . وتحضرني في هذا المقام حيرتي اذا تعرضت في احدى رواياتي الى وصف معاصر ، فالعربية .. ان حرصت على تقاليدها ــ لن تسعفني على سبيل المثال في وصف اثاث عصري أوزي او مطبخ او حمام ناهيك بمحل مثل عمر افندي او مستشفى او ملهى .

انه لا يقضي على لغة مثل تقديسها والمحافظة على تراثها . ونحن نشعر نحو العربية بالقداسة بما هي لغة القرآن الكريم ، ولكن القرآن سيظل هو القرآن ، وستبقى لغته دون تغيير أو تحوير تتلى علينا ليلا ونهارا وتقرأ اذا قرنت مصحوبة بالهوامش المفسرة . فلا خوف بعد ذلك من ان تتمتع العربية بالحرية التي تحظى بها اللغات الحديثة حتى تصير لغة عصرية بكل معنى الكلمة وان تستوعب جميع الافكار وجميع الاشياء .

يمكن رصد علاقة اللغة المحكي المتصل بالواقع المباشر على ثلاثة مستويات .

١ ــ الحوار بين الناس :

وبالنظر الى انتشار الامية ، والى متطلبات الحياة اليومية ، والى تقاليد اللهجات الضاربة بجذورها في الماضي السحيق ، فان اللغة العربية لا تستطيع استيعاب هذا الواقع المتدفق او تجاوز الازدواجية ولكن انتشار التعليم واستعمال اللغة في أجهزة الاعلام ، قد يخلق على المدى الطويل لغة شعبية تقترب في جوهرها كثيرا من الفصحى مع الاستفادة الدائمة من حيوية اللغة الدارجة ومواكبتها التلقائية لحركة الزمن والحضارة . بل ليس من المستبعد ان توجد في الزمن البعيد لغة عربية واحدة متطورة للحوار اليومي تشبه لغة الصحافة في عالم الكتابة ولن يتوقف ذلك على نشاط التعليم واجهزة الاعلام فحسب ولكن على ما تولي اللغة من عناية ومرونة وتيسير وخاصة فيما يتعلق بالنحو والاعراب .

٢ ـ لغة الرواية :

يمكن ان يكتب الادب الروائي باللغة الفصحى نصا وحوارا ، وقد خضنا هذه التجربة خلال معارك نقدية طويلة ووحشية ، واعتقد ان تجربتنا مع اللغة وتطويعها لهذا الفن كانت ناجحة ، ولعله مما يذكر ان كتابة الرواية بالفصحى اليوم هي القاعدة وان استعمال اللهجات الاقليمية هو الاستثناء .

٣ ـ لغة الدراما :

في المسرح التاريخي تستعمل اللغة شعرا ونثرا .
أما في الدراما فتغلب الدارجة ، وعلى اي حال فان لغة الدراما ستتغير بتغير لغة الحوار اليومي وقد تسبقها في التطور نحو اللغة المنشودة .

اما الكوميديا فستظل تعتمد على لغة الشعب لانها تستمد من نبرتها وتركيباتها جزءا لا يستهان به من فكاهتها .

ومهما يكن من امر فان ازدواجية اللغة ليس بالعيب الخطير ولاتكاد تخلو منه امة ، والمهم ان تتحد لغة الثقافة بمعناها الشامل ، وفيها تلتقي الامة العربية مهما تنوعت لهجاتها .

ان التوحيد في اللغة يعني التوحيد في الثقافة او التقارب فيها الى اقصى حد ، وهو كما تعلمون من الاسباب الهامة التي تعمل على الوحدة السياسية مع توفر الاسباب الاخرى . وقديما وحد الادب بين العرب قبل أن تنتشر فكرة واحدة عن التكامل الاقتصادي او الوحدة السياسية ولست في حاجة الى التذكير بان اللغة وحدها لا تكفي لتوحيد العرب . ونحن نعلم ان الحرب قد قامت بين الولايات المتحدة وانجلترا رغم توحد اللغة والجنس . وها هي مأساة لبنان تذكرنا بان توحد اللغة بنوعيها الفصيح والدارج لم تمنع الفتنة من ان تمزق وطنا واحدا في غير حاجة الى توحيد . ولكن اذا توفرت الشروط الاخرى تصبح اللغة الواحدة من اهم أسباب الإلتحام والتوحيد .

١٩٨٤

★ ★ ★

د. سالم يفوت

حول النهضة العربية :

١ ـ تبلورت النزعات الاصلاحية في العالم العربي في عصر النهضة العربي ضمن شروط تاريخية محددة ، ابرزها الوعي بالتاخر التاريخي عن ركب التقدم والحضارة ، ووطاة الهيمنة الاستعمارية ، وهي شروط اعطت للوعي النهضوي مسحته الخاصة به ونكهته المتمثلة في ان خطاب النهضة استعاد القيم السياسية الاوربية الحديثة والمعاصرة . فصدمة الحداثة جعلته يعتبر أن شروط هذه الاخيرة هي القيم التي ترتكز اليها . ولا يهمنا ، في شيء ، ها هنا ، الكيفية التي قرئت بها النهضة الغربية . انطلاقا من مفاهيم « السياسة الشرعية » ام انطلاقا من منظور «العلمانية» فسواء تعلق الامر بهذه او تلك ، ورغم اختلاف المنظور والادوات المفهومية المعتمدة والمتداولة ، ظل الهاجس النهضوي واحدا هو هو عبر عن نفسه من خلال عدة مطالب ابرزها :

- خلق مجتمع مدني خال من كل أشكال الهيمنة .

- بناء مجتمع ديمقراطي حر اساسه ديمقراطية تعتمد التمثيل النيابي .

- اصلاح كل المؤسسات وعصرنتها .

وإذا كان هذا المطلب الاخير قد تحقق نسبيا نتيجة التحديث المبكر الذي أدخل على السلطنة العثمانية مع حملة نابليون وإبان حكم محمد علي بمصر ومع التحديث الذي عرفه جبل لبنان وبيروت والشام عامة ، فان المطلبين الاولين ظلا متعثرين في تحققهما نتيجة عدة عوامل يمكن اختزالها في عاملين أساسيين : عامل تاريخي تكويني لا دخل لارادات الافراد فيه ، والزمن وحده هو الذي سيفصل فيه ، وهو آخذ فعلا ، في فعل فعله فيه مع التغيرات عرفتها الاسرة نتيجة نمط العيش الجديد : انه الطابع القبلي العشائري الذي ما زالت ملامحه قائمة . وعامل ظرفي له علاقة بالاوضاع التي كان عليها الوطن العربي في منتصف القرن الماضي حيث الرغبة في الانعتاق من ربق الاتراك ومن براثين الاستعمار الاوربي وما رافق ذلك من تعرف على مضامين ومفاهيم من الفكر السياسي الغربي كالوطن والدولة الوطنية والقومية ... فتكون في الفكر العربي المعاصر تيار الفكر القومي الذي يطرح الوحدة كبديل للتشرذم ويقول بخصوصية التاريخ العربي وعدم انطباق المقولات التاريخية الاخرى عليه مما أولد نوعا من الاعتقاد في الاكتفاء الذاتي والنفور من مقولات الفكر السياسي الحديث ، مما أولد فقرا نظريا انعكس على الواقع السياسي . ودون أن نقوم هنا بالتجريح أو التشكيك في الفكر القومي ، نؤكد انه رغم رفعه لشعارات كالتحرر ... لكنه همش التحرر الذاتي للانسان العربي كقضية الديمقراطية ، كما استعاض عن الاختلاف والصراع بوحدة موهومة هي وحدة القوم . ومن امتدادات ذلك ما نلاحظه الى يومنا هذا من أجل الانظمة العربية تأخذ بنظام الحزب الواحد ، أما التي تسلك مسلك الديمقراطية والتعدد وتؤمن بحق الاختلاف ، فهي معدودة على أصابع اليد الواحدة . وأظن ما يعوزنا حاليا هو مراجعة الفكر القومي

ونقد ادواته المعرفية ومسلماته في ضوء العصر ومتطلباته فكل فكر لا يستنشق هواء جديدا ، يحكم على نفســه بالاختناق . فبدعوى أن الليبرالية شر لم نستفد حتى من محاسنها اعتقادا أن ذلك هو ما سوف يهيئنا لتخطي المراحل وطيها ، اي لم نحقق المجتمع المدني ، باعتباره الشرط الاساس لكل تجاوز أو استشراف لشيء آخر .

٢ ـ ليس التراث هو الذي يخلق النهضة ، بل هذه الاخيرة هي التي تخلقه . والنزعات التراثية في الوطن العربي تتناسى أن ما سمح لاجدادنا أن يبدعوا ما أبدعوه من تراث خالد نعتز به هو الشرط الحضاري الذي وجدوا فيه ، فقد كانوا هم مركز العالم ، وكانت اوربا محيطهم المتخلف لذا فان احياء تراثنا والاعتزاز به ، كله شيء جميل ، لكن أوكد الواجبات والمطـالب تظل هي الدخـول الى العـالم المعاصر مـن بابه الواســع وهو شيء يقتضي أن نتقدم ولا سبيل الى التقدم الا بالاخذ بأسبابه ، ولن تكون على درب التقدم ما لم ننفتح على الثقافة العالمية المعاصرة في كل مجالاتها فنحن ما زلنا في حاجة الى خلق مجتمع مدني ومواطن عربي حر ، والى احتواء القيم الليبرالية المتقدمــة من اذكاء روح المبادرة وتقديس العمل والاخذ بالمكتسبات التربوية الايجابية . ولعل مثال اليابان هذا غني بالدلالات .

ان اجدادنا لم يروا غضاضة في الاقتباس من الفكر اليوناني ، بل جعلوا ذلك مهمة رسمية يخصص لها الخليفة اعتمادات ويرصد لهــا الرجال (بيت الحكمة) . وحتى تراثنا الذي نصر على اعتباره شرط هويتنا وأصالتنا ، في جانب كبير منه مأخوذ من مصادر اخرى . فجل ما ذكره الجاحظ مثلا في كتاب الحيوان مستمد من آراء لارسطو في كتاب « طباع الحيوان » . والكثير من القضايا التي اثارها المعتزلة أصلها في الفلسفة اليونانية ... ويمكن أن يقال ذات الشيء حتى بالنسبة للنحو والفلسفة والنقد ...

٣ ـ التضامن العربي عامل هام من عوامل النهضة ، وهو الكفيل باعطاء الامة العربية قوتها الضرورية واللازمة لتخطي مصاعب التخلف

والهامشية ، وللظهور بمظهر القـوة التي يحسب لها الف حساب في المحافل الدولية تجاه القضايا العالمية وعلى راسها قضية العرب المشتركة: فلسطين . ومن الاشياء التي يمكن للعالم العربي أن يعول عليها في هذا الصدد تهييء الجو لخلق تكامل اقتصادي وخلق سوق اقتصادية عربية مندمجة تحد من تبعية كل بلد على حدة لدول المركز .

حول مستقبل اللغة العربية

١ ـ تحقق الكثير من تحديث اللغة العربية ، لكن الاكثر ما زال قائما ينتظر التحقق . واقصد بالذات تجديد النحو العربي وتبسيطه عن طريق تهذيبه وتخليصه من عدة أشياء لا تسمن ولا تغني من جوع وهو مطلب طرح منذ القرن الخامس الهجري مع ابن حزم وابن مضاء القرطبي ، وحاول التاكيد عليه الاستاذ شوقي ضيف في الفترة الحالية ، هذا فضلا عن أن طرق تعليمها ما تزال غير منفتحة على الدرس اللساني المعاصر الذي نجده في أساس التحولات المنهجية التي طبعت تدريس اللغات الاوروبيـــة .

٢ ـ اما مسألة الازدواجية فان التجارب ، ممثلة في بعض الروايات والقصص تؤكد قدرة العربية الفصحى على استيعاب المحكي المتصـــل بالواقع لا استيعابا كاملا لكنه استيعاب واعد مع ذلك يبشر بأن الاستمرار في محاولته من خلال تطويع اللغة ، قد يؤتي أكله قريبا .

٣ ـ حينما تطرح مسألة اللغة يتم ذلك من موقف عاطفي ، تطغى عليه النبرة الانفعالية أكثر من طغيان الرؤية الواقعية .

لقد أكدنا آنفا أن الوحدة الحقيقية بين العرب لا تتم الا ضمن شروط سياسية واجتماعية واقتادية ، وهي شروط غير قائمة حتى الآن . صحيح أن ثمة شرطا تاريخيا يتمثل في وحدة الماضي والتاريخ واللغـة ، لكنه شرط غير كاف ما لم يدعم بالشروط الاخرى . ذلك أن الوحـدة قرار سياسي اقتصادي اجتماعي . وقد بينت التجارب والاحداث ان

بامكان دول لا رابط لغوي بينها ان تتوحد اذا ما وفرت الشروط الحقيقية للوحدة . ماذا تفيدنا وحدة اللغة ووحدة التاريخ ووحدة العقيدة ان لم نتخذها درسا لتوفير الشروط الحقيقية للوحدة ، ولعل ما افادتنا به حتى الآن هو انها مكنت بعضنا من أن يفهم سباب البعض الآخر له وشتمه له .

ويقودنا هذا الى مشكل آخر يتعلق بمسالة التعريب صحيح ان لغة الامة هي ذاكرتها التاريخية ومظهر من مظاهر هويتها لذا فان التعريب لا يتشكك في مبدئيته الا مغرض . لكنه لن يغنينا مع ذلك عن ضرورة خوض غمار الحداثة ، واقصد بالذات اتقان لغات أجنبية اخرى وخلق مثقف عربي قادر على ان يفرض نفسه في السوق الثقافية والعلمية العالمية . انها سوق يحتكرها المركز لذا ، وحتى لا نظل على هامش التاريخ العلمي والثقافي ، نحن ملزمون بالاخذ بمعايير المركز مع ما يتطلبه ذلك من مراجعة لسياساتنا الثقافية والعلمية . لا ادعي أننا سنصبح يابانا ثانية ، فقد فاتنا الركب على ذلك ، لكن المهام المستعجلة المطروحة علينا هي الاستفادة من العلم من اجل تطويق التخلف والسيطرة عليه . اذ ما زالت الهوة تتسع بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة ، ووهم اللحاق بالتقدم الحاصل في المجتمعات العلمية الصناعية ، هو اللحظة الراهنة ، وهم لان دول المركز تستاثر بمنهج معين لتوظيف العلوم الحديثة لا تستطيع مجتمعاتنا بشكلها الراهن استيعابه .

وفي هذا دليل على ان مسالة التقدم العلمي ومسالة لغة واحدة هي اللغة القومية او لغتان او اكثر ... وغير ذلك من المسائل لها صلة وثيقة بشرط يظل غائبا في اللحظة الحاضرة ، هو تطوير مجتمعاتنا لتصبح مجتمعات متماسكة ثقافيا وسياسيا قادرة على الخلق والابداع في كل المستويات وقادرة على اعتماد قيم الحرية والعدالة والمساواة وعلى استيعاب قيم التقدم السياسي والعلمي .

لقد صار الاقتناع بالوحدة تلقائيا لارتباطه بالوجدان العربي ، والظروف الحاضرة تؤكد مصداقيته ، لاننا نعيش عصر التكتلات

والتجمعات الكبرى ، ولن تستطيع دولة واحدة أو قطر بعينه أن يذلل لوحده مصاعب التقدم . لكن نظرتنا للوحدة هي ذاتها عائق أمام تحقيقها . فنحن نفهم منها عادة توحيدنا ومجانستنا وقلبنا الى نموذج واحد وتذويب الفوارق بين مجتمعاتنا وطمس تنوعنا واختلافنا أي اي اختزال المجتمع العربي في مجتمع واحد . وذاك أمر مغلوط لان فيه تجاهلا للاختلاف وللحق في الاختلاف الفردي والاجتماعي وما يتطلبه من شروط كالديمقراطية والانصات الى الآخر والى الراي المضاد . فبين دولنا العربية تفاوت وتباين واختلاف بنيوي وتاريخي ، بل داخل كل مجتمع ثمة تفاوتات واختلافات . لذا بدلا من اعتبار كل ذلك أمرا عارضا ، يلزم اعتباره أمرا واقعا وراسخا وان ننسج على أساسه وحدتنا بالتدريج وانطلاقا من قطاعات حيوية مصلحية مع الرغبة في تحقيق أهداف ملموسة وغير خطابية ، لنوحد مثلا أثمنة بعض المواد في الوطن العربي ، لنعد النظر في التأشيرة ، لنقرب معاييرنا الاقتصادية من بعضها البعض ، لنتكامل اقتصاديا في بعض الجوانب ...

فذلك هو الكفيل وحده بأن يرفعنا من مجرد التصور العاطفي للوحدة الى تصورها الواقعي الملموس .

١٩٨٩

* * *

د. معن زيادة

حول النهضة العربية :

١) هل استكملت النهضة العربية شروط وجودها ، وقد مضى على بدايتها اكثر من قرن ونصف ؟ وما الذي يعوزها في رايك ؟

النهضة لغة ومفهوما تتضمن سبق الكبوة او الانتكاسة او السبات الطويل او التخلف او ما شابه ذلك . وقد درج المؤرخون والمفكرون الاجتماعيون والسياسيون وغيرهم على وصف القرون العربية السابقة على القرن التاسع عشر بالركود او الجمود اوالظلامية أو التخلف ، أولا لانها جاءت بعدفترةذهبية منالتاريخ العربي ، وثانيا لانها سبقت فترة من النهضة او محاولة النهضة على الاقل . الإ ان النهضة كمصطلح وكمضمون مستعارين من أوروبا ونحن نتحدث عادة عن نهضة عربية بالقياس الى النهضة الاوروبية التي بدات في

القرن الخامس عشر واستمرت تتصاعد على مدى عدة قرون . والبعض يرى ان هذه النهضة تعود الى ما قبل ذلك وخاصة الى مرحلة بدء اوروبا الافادة من العلوم وتوظيفهابعداقتباسها من العرب،أو غيرهم على الاقل. وقد تجلت هذه النهضة الاوروبية على الصعيد السياسي في تكريس الحقوق المدنية والوطنية القومية وخاصة في مواجهة سلطات الملوك المطلقة عبر نهوض الشعوب الاوروبية بثوراتها ضد الامتيازات الطبقية والاقطاع .

في القرن التاسع عشر توفرت بعض الظروف المؤاتية لنهضة عربية ، فقد شهدت المنطقة العربية انحسار الهيمنة العثمانية وضعفها وبداية تفككها ، دون ان يكون نهوض البرجوازية الاوروبية قد تحول الى حركة استعمارية شرهة بعد يحل محل الدولة العثمانية وياخذ مكانها . في هذه الفترة التي يمكن وصفها بالانتقالية شهدت المنطقة العربية محاولات استقلالية وتحديثية نهضوية متعددة ، كان اشهرها واهمها محاولة محمد علي باشا في مصر التي امتدت تأثيراتها كما امتدت اصداء التفاعل معها الى ما وراء حدود البلاد العربية . وقد حققت هذه المحاولة نجاحا باهرا في كافة الميادين ؛ الا ان تحول حركة النهضة البرجوازية الاوروبية الى حركة استعمارية واسعة حال دون اتمام المشروع النهضوي العربي وتوسيعه وتطويره . وقد نجح الاستعمار بعد ايقاف المشروع النهضوي هذا في تفريغه من الكثير من انجازاته ومكاسبه دون أن ينجح بامتصاصها جميعا .

تلخص مشروع محمد علي النهضوي في قيام دولة عربية مستقلة فعليا وفي استعمارة التجربة الاوروبية والافادة منها في ميادين التكنولوجيا العسكرية خاصة ، والعلوم والادارة والتصنيع والزراعة وكافة اوجه الحياة ، واقامة توفيق نظري وعملي بين الحياة العصرية والقيم التراثية ، او بتعبير آخر تأكيد ان الحداثة لا تعني فقدان الشخصية القومية قولا وعملا . لم يكن مشروع محمد علي النهضوي هذا منذ بدايته بهذا الوضوح فقد كان هم محمد علي الاول الحصول على جيش اوروبي الطابع في تنظيمه وعتاده يكون اداته الاولى ووسيلته الاساسية للامساك بالسلطة ، الا ان محمد علي سرعان ما اكتشف ان ذلك لا يكون دون اصلاح شامل يتناول كافة وجوه الحياة الاجتماعية من سياسية وادارية وتعليمية واقتصادية وزراعية .. وهكذا تحول مشروعه العسكري الى مشروع اصلاحي واسع له كل صفات المشروع النهضوي . وقد توفر لمحمد علي من رجال الفكر من

عاونه على صياغة هذا المشروع ورسم معالمه حتى تكامل على الشكل الذي اشرنا اليه ، وكان لرفاعة رافع الطهطاوي وعلي مبارك وغيرهما دوراً كبيراً في هذا المجال .

ولم تقف حدود المشروع عند الصياغة ، بل يمكن القول ان صياغة المشروع جاءت مع تنفيذ خطواته ؛ وقد اصاب محمد علي نجاحاً كبيراً واستطاع ان يضع مصر في مصاف الدول الكبرى في زمانه عسكريا واقتصاديا وصناعيا ، وقد وصف لنا المؤرخ عبد الرحمن الرافعي « عصر محمد علي » وصفاً دقيقا وبين لنا الانجازات الكبرى التي تحققت في ايامه ، ونحن لا نتحدث هنا عن قوة محمد علي العسكرية التي اخافت اوروبا عندما ارسل جيوشه الجرارة واساطيله الى الاستانة عبر اليونان ، ولا عن احتلاله السودان والجزيرة العربية وهزيمته للحركة الوهابية ، ولا عن امتداد سيطرته الى بلاد الشام ، وانما نشير الى اعداد البنى الاساسية والكوادر اللازمة لعملية النهوض في كافة الميادين ؛ التعليمية والعسكرية والزراعية والادارية والسياسية . فقد تلخصت خطته في اعداد البنى الاساسية اللازمة لقيام الدولة الحديثة بكل معنى الكلمة ، وقد رافق ذلك اعداد جيش قوي واقتصاد مركزي متماسك وتأمين استقرار سياسي لفترة طويلة من الزمن وهي امور لا بد منها لكل مشروع نهضوي .

وكما وصف الرافعي « عصر محمد علي » وانجازاته ومكاسبه ، وصف لنا شهدي عطية الشافعي « تطور الحركة الوطنية المصرية » ونهوضها ثم سقوطها على يد الاستعمار البريطاني وتفريغ مصر من مكاسب وانجازات المشروع النهضوي وامتصاص نتائج هذا المشروع ليس في مصر وحدها بل وفي كافة البلاد العربيــة بالتعاون مع حلفائها . وقد استطاعت القوى الاستعمارية تقويض المشروع النهضوي وتحويل البلاد العربية الى التبعية الفعلية لمدة طويلة من الزمن .

وقد رافق نهضة محمدعلي التي اوجزنا الاشارة اليهامحاولات مماثلة، نشير هنا على وجه الخصوص الى محاولة خير الدين التونسي وبعض بايات تونس المتنورين ، وهذه المحاولة تثبت ، كسابقتها المصرية وكغيرها من

المحاولات العربية في القرن التاسع عشر على الخصوص ؛ رغبة العرب الحثيثة بالنهوض وقدرتهم على ذلك ، فلقد اصابت المشاريع النهضوية الكثير من النجاح ، وكان يمكن لتراكم الجهود ان يؤدي الى نهضة حقيقية ، الا ان الاستعمار جاء ليضع حدا لهذه النهضة ويبترها ثم يجهضها من اكثر مكتسباتها .

واليوم ونحن نتلمس طريق النهضة مجددا بعد انتكاسة طويلة انتهت باستقلالات عربية مزيفة في اكثرها ، رافقها زرع دولة اسرائيل في قلب الوطن العربي يستنزف طاقاتنا وقوانا ، يمكننا القول ان مسيرة النهضة العربية لم تكن منتظمة ، اذا لم نقل انها كانت متعثرة ، فباستثناء فترات قصيرة ، وعلى وجه التحديد فترتين قصيرتين نسبيا ، لم تتوفر للعرب الظروف العالمية المؤاتية لمسيرة نهضتهم ، اما الفترة الاولى فهي فترة ضعف الدولة العثمانية وبدء انحسار هيمنتها التي طالت حتى بلغت عدة قرون من الزمان ، وقد اشرنا الى ان الانجازات النهضوية العربية الاولى تمت في هذه الفترة ، والفترة الثانية هي فترة انتقال زعامة العالم الغربي من اوروبا الى امريكا بعد الحرب العالمية الثانية ؛ فقد خرجت الدول الاوروبية منهوكة القوى من هذه الحرب ، ولم تكن امريكا قد تملكت زمام العالم الغربي ، ولم تكن شهيتها الامبريالية قد تفتحت كما هي اليوم . في هذه الفترة الثانية حصلت الدول العربية على استقلالاتها وارتاحت من الاستبداد والاستنزاف الاستعماري المباشر ، ونشطت حركة التحرر العربي وظهرت مشاريع قومية عربية نهضوية جديدة كان اهمها المشروع الناصري الذي اعاد الى الاذهان مشروع محمد علي مع اختلاف ظروف وشروط المشروعين . وقد جاء المشروع الناصري محاولة للتطبيق العملي لشعارات الحركة القومية العربية المتلخصة في الوحدة العربية ، والتحرر السياسي ، والعدالة الاجتماعية . ولعلنا نعرف جميعا كيف تحالفت امريكا واسرائيل ضد هذا المشروع وكيف استطاعت تجييش الرجعية العربية ، ثم كيف تمكنت من ضرب هذا المشروع واغرقتنا بعد ذلك في حروب وصراعات محلية واقليمية مستنزفة كل شيء فينا مجهزة على كل مكاسبنا القومية .

فاذا عدنا بعد هذا الى السؤال الذي يتضمن اعطاء عامل الزمان دورا كبيرا حيث جاء فيه « هل استكملت شروط وجودها ، وقد مضى على بدايتها اكثر من قرن ونصف ؟ » وهو سؤال يوحي بأن المسيرة النهضوية كان يجب ان تستكمل شروطها لانهمضى على بدايتها هذه الفترة الطويلة نسبيا من الزمان . والواقع ان للنهضة شروطها الخارجية التي تعكس نفسها على الشروط الداخلية ، الامر الذي يقلل من اهمية الفترة الزمنية، فقد تكون الشروط التاريخية مناسبة فيمكن للمسيرة النهضوية ان تقفز خطوات كبرى الى الامام في فترة قصيرة من الزمان ، وقد تكون الشروط التاريخية غير مناسبة فتتعثر المسيرة النهضوية ويقل تراكم المنجزات ، بل قل ان المنجزات يمكن ان تجهض فيتلاشى اكثرها ويضيع معظمها ، وهو ما حدث اكثر من مرة في فترة القرن ونصف القرن المشار اليها . ومع هذا كله ورغم المسيرة المتعثرة يمكن القول ان النهضة العربية قد استكملت الكثير من شروط وجودها ، فمن جهة انتشرت المعارف وازداد الوعي وكثرت الجامعات ومؤسسات البحث ؛ ومن جهة تكونت البنى الاساسية اللازمة لعملية النهوض في كافة الميادين : الثقافة والتعليم والزراعة والاقتصاد والادارة والجيش والدفاع وغيرها كثير . واذا كانت بعض الاقطار العربية مازالت تفتقر الى بعض هذه البنى فان غيرها من الاقطار العربية يمكن ان يسد النقص الموجود ، وهنا يأتي دور التضامن العربي موضوع السؤال الثالث من هذا الاستفتاء حول النهضة .

ولكن ومع اننا نملك امكانات النهوض الانسانية والمادية ، فاننا لانزال لا نعيش واقع النهضة ؛ لماذا ؟ لان انظمتنا السياسية في غالبيتها الساحقة هي أنظمة لا تعبر عن رغبة الجماهير في النهضة ، وهي تحمي وجودها بالتبعية للغرب ، انها انظمة عاجزة عن توظيف الكفاآت العربية التي يهاجر الكثير منها الى البلاد المتطورة ، تلك الكفاآت التي جاءت نتيجة سعي أجيال متعددة من العرب الى العلم والمعرفة ، وقد حصلت منها على ما يكفي لبدء مسيرة النهوض ، الا ان عدم توفر القيادات السياسية التي تفيد من هذه الكفاآت ومن البنى الاساسية المتوفرة يجعل المشكلة مشكلة سياسية أولا وقبل كل شيء ، اي انها مشكلة قيادات ونمط حكم ومصالح فئات حاكمة متعاكسة مع مصالح الشعوب ، فهي فئات حاكمة لا تستطيع الاستمرار في مواقعها دون حماية الغرب وامريكا

بالذات ؛ فاذا اضفنا الى هذا وعي الغرب والامبريالية الامركية خاصة بخطر نهوض الشعب العربي على مصالحها واتخاذها الكثير من الخطوات التي تعرقل هذا النهوض وتجعله مهمة شاقة وصعبة ، ادركنا ان المشكلة في حقيقتها هي مشكلة سياسية داخليا وخارجيا .

٢) بدأت النهضة مع الاحتكاك بالغرب ، فهي مزدوجة تؤكد مع جهة ضرورة حفاظ العرب على أصالتهم ، ومن جهة اخرى الاخذ بأسباب الحضارة الحديثة فما حدود الاقتباس وما هي مجالاته :

النظم السياسية والاقتصادية والتربوية ؟

الادب والفن والفلسفة ؟

يوحي السؤال بأن قضية الاخذ عن الغرب والافادة من علومه لم تعد قضية خلافية ، وهذا صحيح الى حد بعيد ، الا ان السؤال يوحي أيضا بأن مجال الاخذ والافادة والاقتباس يجب ان يظل في ميدان العلوم التقريرية دون غيرها من العلوم التقويمية ، وان اقتباسنا في ميدان العلوم التقريرية يجعلنا محدثين في حين ان عدم أخذها في مجال القيم والمعايير والعلوم المرتبطة بهذه القيم وتلك المعايير هو ما يحفظ اصالتنا . والواقع ان طرح القضية بهذه الصورة هو طرح مبسط ؛ اذا لم نقل انه طرح خاطىء ، فهو يفترض أننا يمكن ان نكون انتقائيين انتخابيين ، فنقتبس في مجال دون مجال وهو يقيم تفرقة مصطنعة داخل المعرفة ، فجزء منها قيمي يعبر عن الاصالة وجزء تقريري لا علاقة مباشرة للاصالة به . وفي رايي أن هذا الطرح الذي يعبر عن موقف شائع بين أوساط المثقفين وغيرها غير ممكن التحقيق على الصعيد العملي ، ونحن لا نستطيع ان تقتبس في مجال دون مجال ذلك ان القيم والعلوم التقويمية على صلة مباشرة بالزراعة والصناعة والتجارة والاقتصاد والسياسة والعلوم الادارية والفلكية والذرية والطبية الى آخر السلسلة ، أضف الى ذلك انه موقف مضلل لانه يوهمنا ان حفظ أصالتنا يكون في المحافظة على الاشكال التقليدية لضروب التعبير المباشر من ادب وفن وفلسفة .

والواقع أن كل مظاهر الحياة في المجتمع هي مجالات تعبير ، بعضها يبدو أكثر مباشرة من بعض ، وهي مجالات تعبير عــن المستوى الثقافي والحضاري لشعب من الشعوب يكمل بعضها بعضا فتتشكل منها ثقافة المجتمع ؛ والواقع أيضا أن الاخذ والاقتباس والافادة يجب أن لا تقيـد وان لا تحد الا بحدين اثنين : الاول ان لا يكون الاقتباس لمجرد التقليد الاعمى ، والثاني ، وهو متمم للاول ، ان يكون مفيدا صالحا وان يوضع في خدمة الفرد والمجتمع . الاديب العربي لا يمكن أن يكون أديبا اذا كان بعيدا عن آداب العصر ، والفنان العربي لا يمكن أن يكون فنانا اذا تخلى عن فنون العالم المعاصر ومدارسه واتجاهاته ، والفيلسوف العربي لا يمكن ان يكون فيلسوفا اذا رفض الاقتباس والافادة من فلسفات الآخرين . تماما كما لا يمكن لعالم الفيزياء اليوم أن يسمى عالما فيزيائيا اذا اقتصر علمه على الفيزياء كما عرفت عند العرب في العصور الوسطى ، وكما لا يمكن للطبيب ان يكون طبيبا وللرياضي أن يكون رياضيا وللاقتصادي أن يكون اقتصاديا وللاداري أن يكـون اداريا .. الخ . اذا رفض هـؤلاء الاقتباس والافادة من علوم العصر وهي بالضرورة علوم غريبة في مرجعيتها، عالمية في فاعليتها ودائرة عملها .

أما الاصالة فلا تكون بالتمسك بالقديم دون الحديث ، بـل تكـون، بالابداع والابتكار والعطاء ضمن اطار العصر الذي نعيش فيه . جاءت أصالتنا من ابداعنا وعطائنا وتبقى أصالتنا بابداعنا وعطائنا . أما التمسك ببعض مظاهر التعبير التقليدية ظنا بأنها تحفظ أصالتنا فهو وهم لا يقودنا الا الى المزيد من الابتعاد عن الاصالة والى الامعان في الخروج من العصر والبقاء على هامشه .

تبقى قضية لابد من الاشارة اليها هنا ، وهي أن الحضارة الحديثـة تنطوي على جوانب ايجابية لا حصر لها ، الا انها في نفس الوقت تنطوي على بعض السلبيات ، ولسنا هنا لندخل في تفاصيل هذا الموضوع الا ان أخطار الحروب النووية والمكروبية وغيرها التي تهدد العالم ، وتلوث البيئة الذي يهدد المحيط الحيوي للانسان والحيوان على حد سواء ، ومركزية الاقتصاد العالمي التي تهدد بافقار شعوب العالم وتجويعها ، وغير هذا كثير ،

هو بعض الامثلة على سلبيات النهج المصري ، واذا كان لنا ان نختار فيجب ان نختار تصحيح نهج المسيرة الحضارية الراهنة ، وذلك لا يكون دون الدخول في معمعتها ؛ فاذا قدر لنا اي دور في هذا فنحن الاصلاء حقـا ، واذا بقينـا خارج المسيرة فنحن نحن المتخلفون .

٣) التضامن العربي عامل هام من عوامل النهضة ، فما دوره على الضبط ، وما الاغراض التي حققها حتى الآن او يمكن أن يحققها ؟

التضامن العربي ضروري ، الا انه وحده لا يكفي ، فنحن نواجـه نواجه تحديات كبرى لا نستطيع التصدي لها الا بالوحدة او الاتحاد . فنحن نواجه الخطر العسكري الاسرائيلي والامريكي ، ونحن بحاجةللوحدة أو الاتحاد العسكري . ونحن نواجه الافقار والتجويع ، ونحن بحاجـة للتكافل الاقتصادي العربي ، ونحن نواجه خطر التبعية في كافة الميادين، ونحن بحاجة لتكاتف الجهود . ونحن نرى العالم يسير نحـو التكتلات الكبرى التي تضمن عدم زوال الشعوب في عالم متصارع ، ونحن بحاجـة لما يجمعنا ويوحدنا ولا يجمعنا ويوحدنا تضامن من نوع جامعة الـدول العربية بل يجمعنا ويوحدنا ادراكنا للتحديات الكبرى التي تواجهناوادراكنا لوحدة هذه التحديات التي لا يكون التصدي لها الا بوحدة المواقف القائمة على وحدة المصير ووحدة الاهداف ووحدة المصالح .

حول مستقبل اللغة العربية :

١) هل تحقق الفرض من تحديث اللغة العربية الذي بدأ منذ حوالي قرن ونصف ؛ فصارت بمقياس اللغات العالمية وصار بوسعها اداء العلوم والاداب والفلسفة العالمية ؟

اعتقد ان اللغة العربية الحديثة تستطيع ان تؤدي العلـوم والاداب والفلسفة وجميع المبتكرات ومنجزات التكنولوجيا دون صعوبات . وقد اثبتت اللغة العربيةقدرتها على التطوروالتكيف وقابلتها للحياةواستعدادها للبقاء ، فنحن اليوم نستعمل لغة عربية جديدة او قل متجددة في مفرداتها وتراكيبها اللغوية ، ولا أدل على ذلك من الفرق الكبير بينها وبين اللغـة العربية الجاهلية ، فالمثقف العربي اليوم لا يستخدم لغة الجاهلية ، بل

انه لا يفهمها دون استخدام المعاجم والقواميس . وهذه اللغة المستجدة تختلف أيضا عن اللغة العربية الوسيطية ، لغة عصور الازدهار العربي التي تمثل مرحلة متوسطة بين المرحلة الجاهلية والمرحلة الحديثة . واذا كان هناك من اشكالات تعترض استخدام اللغة العربية الجديدة في العلوم ومبتكرات الحضارة والاداب والفلسفة وغيرها ، فان هذه الاشكالات تعود لاسباب لا تتعلق باللغة نفسها : منها ان طرق تعليم العربية ولا سيما قواعدها هي طرق قديمة عقيمة تعقد الامور أمام المتعلم ؛ وهذه مشكلة تربوية كما هو واضح . ومنها عدم وجود المدرسين الاكفاء المالكين لزمام العربية ، وهي مشكلة تربوية ايضا . ومنها عدم توحيد المصطلحات المستجدة في اللغة في هذا العلم او ذاك ، وهذا يعود الى عدم التنسيق بين المشتغلين في العلم الواحد في شتى الاقطار العربية ، وعدم لعب المؤسسات الثقافية العربية دورها في هذا الميدان الا في نطاق ضيق ، وهذه مشكلة سياسية في نظري . ومنها ان مبتكرات الحضارة وتطور العلوم والتطور المعرفي عموما يسير في العالم بخطوات سريعة لا يمكن اللحاق بها دون جهود مخططة ومبرمجة ومدروسة ، وهو امر لم نعد انفسنا له ، وهي مشكلة حضارية في اعتقادي ...

٢) هل تستطيع اللغة العربية في وضعها الراهن استيعاب المحكي المتصل بالواقع المباشر وبالتالي تجاوز الازدواجية في التعبير ؟

اثبتت بعض الدراسات الالسنية في ميدان ازدواجية التعبير عند العرب ان حل هذه المشكلة يكون عبر المزيد من التعليم ، وان الازدواجية تسير نحو التلاشي مع ارتفاع درجة ثقافة الفرد . في الاسرة الواحدة تعبر الجدة غير المتعلمة بمصطلحات مختلفة عن مصطلحات ابنها المتعلم وبمصطلحات حفيدها المثقف . وهذا يصدق على القطر الواحد وعلى الامة بأسرها . حل هذه المشكلة اذن في محو الامية وارتفاع مستوى العلم والمعرفة عموما عند المواطنين .

٣) ما الدور الذي تلعبه اللغة في توحيد العرب ؟

دور كبير ، وخاصة في غياب عوامل التوحيد الاخرى ...

١٩٨٥

★ ★ ★